الدرس الأول

هِمّةٌ عاليةٌ

﴿وجاء من أقصى المدينة﴾ فهذا الداعية كما هو ملاحظ كان في أقصى المدينة، بعيداً عن مكان اجتماع قومه بالأنبياء، وهذا البعد لم يعطه مسوغاً في الجلوس وعدم النهوض بأمر الدعوة، وقول كلمة الحق وإيصالها إلى أهلها بصدق وأمانة.

ومن هنا أيها الداعية لا بُدّ وأن تبذل الجهد. وتستنفد ما في الوسع، وتمضي في العمل دون النظر إلى طول الطريق أو بعد المسافة، أو ثقل الحمل.

فهذا الداعية المؤمن باحساسه بواجبه نحو دعوته وبني قومه، نهض نهضة إيمانية دعوية صادقة، تصاغرت أمامها الصعوبات والمشاق، واندحرت بها الأعذار الواهية التي غالباً ما يزين فيها الشيطان للداعية تقاعسه وتقصيره...وكم هي كثيرة هذه الأعذار!! التي لا تكلف الواحد منا أكثر من حركة في اللسان وشيء من زينة البيان!!

ونحن أخي بحاجة لمثل هذه النهضة الإيمانية الدعوية التي تستنهض فينا الهمم، وتحيي في النفوس عظم المسؤولية، وجسامة الأمانة. وتحرك فينا كل ساكن، وتبعث فينا من جديد حياة ملؤها النشاط والحركة الدائبة التي لا فتور معها أو قصور... ، والله تبارك وتعالى لا يرضى من داعيته أن يبذل القليل أو الفضلة من جهده ووقته، لا بد من بذل أنفس الأوقات وأعظم الجهود، حتى يتسنى للزارع الحصاد وجني الثمار، وللسائر الوصول بإذن الله!!

ولك أخي أن تتصور الخسارة الفادحة، والهزيمة القاصمة حين يقصر الدعاة بواجباتهم، ويتخلون عن أساس وجوهر وظيفتهم، فأي خسارة وأي هزيمة تلك؟! فالساحة ليست خلواً * ، فحين غفونا برهة من الزمن، تقدمت أفكار،

---

* نعم فانظر إلى إلى كيدهم وتدبيرهم في غفلتنا. فهذا زعيم المبشرين زويمر في خطاب له في القدس الشريف يقول للمبشرين: «... ولكن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله» إلى أن يقول: «إنكم أعددتم نشئاً في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار المسيحي لا يهتم بالعظام ويحب الراحة والكسل ولا يعرف همه في دنياه إلا في الشهوات». حاضر العالم الاسلامي د. علي جريشة ص ٥٢، وأساليب الغزو الفكري د. علي جريشه ص ٣٤، ٣٥.

وعلت مبادىء، وشيدت حضارات، كنا ننظر إليها من علٍ، فغدونا نتسابق ونتهافت على موائد حضاراتهم لا لشيء إلا أننا أغمدنا الحسام، ومللنا كثرة الترحال، وخلدنا إلى الراحة قليلاً، فاغتنمها الآخرون وأرادوها ضربة قاضية لا رجعة ولا نهضة بعدها، وما زال شبح الاسلام ومارده يطاردهم ويهدد عروشهم، ويرونه كابوسا يزعج منامهم...فتراهم في حركة دائبة، ومكر خبيث، ولجان تولدها مؤتمرات، وخطط تعدها لجان متخصصة....كل ذلك حتى يبقى المارد في الفانوس السحري. محاولين جهدهم وطاقتهم أن يطمسوا كلمة السر التي تخرج المارد من قمقمه!!

وآن لنا أن ندوي ونصدع بكلمة السر تلك، فنحملها بقوة وعزيمة لا تعرف مللاً، وإقدام لا يخشى إرهاباً، وجرأة لا يقعدها حياء أو خجل!! مهما عظم كيدهم.... ومهما تراءى لنا الطريق صعباً طويلاً شاقاً.....ومهما تراءت لنا الأحمال ثقيلة. والقيود والعراقيل عظيمة... لا بد أن نمضي كما مضى هذا الرجل وكما مضى أولو العزم من الرسل وغيرهم... صلوات الله وسلامه عليهم.... وكما مضى الأولون من الصحابة والسلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

نمضي بَجَلد وصبر، لأن عجز الداعية هزيمة وخسارة فادحة كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعوذ بالله منه ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من جلَد الفاجر وعجز التقي».

ولك أخي أن تتصور أين سيكون ذلك الرجل الذي تعبّدنا الله تعالى بتلاوة قصته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لو أنه قعد عن الدعوة إلى الله تبارك وتعالى أين سيكون مكانه في قافلة بني البشر الجرارة العظيمة؟! وأين وجوده على شريط الزمن الدائر الذي طوى الكثيرين الكثيرين؟! فالكل ذاهب راحل، ولكن شتّان بين ذاهب وذاهب، وبين راحل وراحل، ثم انظر إليه بعد المسير والبذل والتضحية في طريق الدعوة إلى الله، خلود وذكر وثناء تتناقله الأجيال المتعاقبة، ثم ﴿قيل أدخل الجنة﴾!!

وقديماً أخانا قال الشاعر:

تهون علينا في المعالي نفوسنا

ومن يخطب الحسناء لم يغله المهرُ

وكذا أخانا الحبيب (إنها الجنّة تبغي ثمناً) فأي ثمن نزفه للحور العين؟! وأي ثمن نقدمه لنعيم مقيم؟!«مالا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».... وطالب الجنّة لا ينام، والهارب من النار لا ينام، فبربك بعد ذلك من ينام؟! فـ «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية إلا إن سلعة الله الجنّة» وقبل ذلك أيّ ثمن نقدمه لنتبوأ

مقعد الاستاذية العالمية؟! ونسترد للإسلام حق قيادته البشرية؟! أيّ ثمن نقدمه حتى ننقذ البشرية التائهة الحائرة ونعود بها إلى نبع سعادتها وطمأنينتها؟!

وحقاً – أخانا– ما الذي دفع صاحبنا إلى التضحية وتجشم المشاق وتحمل المصاعب؟! وركوب حدّ الهول والخطر؟! وامتطاء صهوة الموت؟! حين سار في ركب الدعوة في لحظة يعلم أن الخطب فيها جِدّ خطير، والأمر صعب لا بل في غاية الصعوبة؟! فالقوم غاضبون حاقدون، متآمرون، فقد ضاقوا ذرعاً بالأنبياء والرسل، فكيف به هو؟! غير ثقل الأمانة وعظم المسؤولية! وغير الطمع بتلك الخاتمة: ﴿قيل ادخل الجنّة، قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ جنة ومغفرة وإكرام، أنعم بها من خاتمة!!

أخانا الحبيب حين نطلب بذل الجهد كله، فليقيننا أنّ هذه الدعوة لا تكون إلا بمثل هذا البذل والعطاء، الذي يتناسب مع عظمتها وعلوها:

﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾، ولأن صاحب الدعوة أعظم من السماء علواً وارتفاعاً!! وأقوى من الجبال رسوخاً

وثباتاً!! ومن الأرض بسطاً واحتمالاً!! لأن كل ذلك أبى حمل الدعوة واشفق منه: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾.

ولقد كان بعض السلف الصالح يقول: يا له من دين لو أن له رجالاً.[1]

«الرجال الذين هم بمستوى هذا الإسلام في شموله، وهذا الواحد المتأسف أنما كان في عصر السلف، أي أنه كان يرى أمامه جحافل فقهاء الفروع، وجحافل الزهاد، لكنهم لم يكونوا ليملأوا نظره.

كان يريد آخرين الفقه والزهد من صفاتهم، لكن يذهبون إلى مرحلة أبعد، يريدهم دعاة، همهم هداية الخلق، وإنفاذ حكم الله، والإنكار على من يحكم الناس بهواه، وهي مرحلة لا يبلغها إلا من أوتي من أخلاق الرجولة مقدارا، ويأنف من كان رجلاً أن يقف دونها مهادناً ومصالحاً، أو مكتفياً بالتوريات، ولذلك لما قيل لأحد فحول الرجال: (لنا حويجة) تصغير حاجة، أي جئناك تقضيها لنا، أبى وقال:

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٣٠٢.

(اطلبوا لها رجيلاً) فالرجيل تَشبَعَ نفسَه بعمل اليسير، أما هو فمهمته عالية، فقد رصد نفسه لضخام الأعمال، ويأنف من صغارها. وأن هذه الدعوة والله لهي شأن الرجال حقاً، الذين يضم سربهم كل مقدام. أما أهل الحذر والهلع من الصدام وعقباته، فليس فيهم إلا رويجل.»[1]

ومجمل القول في هذا الدرس -أخانا- أن تنظر في قول سيدك رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: « لقد ذهب عهد النوم يا خديجة»، وتجعله شعارك وزادك اليومي، فكلما ناداك منادي الكسل والتقاعس منادي الحجج والأعذار الواهية، منادي الراحة والنوم، قلت: لقد ذهب عهد النوم.... لقد ذهب عهد الغفلة..

(١) المنطلق، محمد أحمد الراشد ص ٢٠٥-٢٠٦.